احمد بهاء الدين

مصر تنهي غربتهـــا

شاء لي الحظ ، ان تقـــــع الحرب في بلادي مرتين ، وأنـا بعيد عنها ...

سنة ١٩٦٧ : في باريس .

سنة ١٩٧٣ : في بيروت .

غربة قاسية في الحالتين ، ووحشة لا يعرفها الا من يكابدها ، وان كان شتان بين الغربتين : فالغربة الثانية انتهت بها الغربة كلها .

سنة ١٩٦٧ كانت الغربة ليست بمعناها الجغرافي فقط ، ولكن بمعناها الروحي والمعنوي ، غربة طالت وطالت ، فلم أعد ـ ولم نعد جميعا منها ـ الا ظهر السبت ٦ اكتوبر ١٩٧٣ . ساعتهـا زالـت غربتي ، وأنا ما أزال بعيدا في بيروت ، تفصلني عن بلدي بحـــار وأخطار ، وزالت غربة خمسة وثلاثين مليون مصري ، بل ومائة مليون عربي ، كما تنقشع السماء كلها في لحظة واحدة .

سنة ١٩٦٧ ، في باريس ، كانت غربتان ..

غربة المكان البعيد ، والعداء الذي تلمسه من الناس ، والشماتة التي تملأ رائحتها الجو ، وتحس مذلتها حتى في لقمة الخبز : غربة أن أرى باريس تحتفل حتى الفجر بسقوط القدس ، وتمر المـــواكب في شوارعها خلال النهار هاتفة لاحتلال سيناء ، ولا توجد جريـــدة أو اذاعة أو شاشة تلفزيون الا وتطل منها صورة لعدو منتصر ، أو مصري قتيل أو أسير ..

كنت أخفض رأسي ، متحاشيا ان تلتقي عيني بعيني السيـــدة التي تصعد الى غرفتي صباحا بفنجان القهوة . فالى جوار فنجـان القهوة صحف الصباح بعناوينها المذلة المهينة الشامتة ...

كان ابني الطفل قد طلب مني ان اشتري له لعبة مدفعا رشاشا ، فوصلت الى باب المحل ، ثم عدت على أعقابي : كم ستسخر منـــي البائعة في محل لعب الاطفال ؟!

كم ألف قصة صغيرة ، مريرة ، يمكن ان احكيها وارويها ؟!

على ان غربة المكان كانت الغربة الصغيرة . فهي تنتهي بالعودة الى الوطن . ولكن الغربة الكبرى كانت قد بدأت . سبع سنـوات والفرد فيها غريب والوطن فيها غريب . ليس هذا أنا . ليست هذه مصر . ليست هذه هي الامة العربية . العالم كله كأنه غير حقيقي !

انني أعرف ما ينقص بلادي تماما . وأعرف اننا من البلاد التي تحاول ان تزيح تركة تخلف طويل . ولكنني أعرف ايضا ، وبكـــل موضوعية غير عاطفية ، ان مصر تستحق شيئا آخر غير هذه الغربـة القاتلة عن نفسها وعن عصرها . المتعلمون في مصر وحدها اكثر مـن عدد سكان اسرائيل جميعا . التنوير والتطور والاتصال بالعالم عندنـا عمره يقرب من قرنين . بلادنا حافلة بالفنيين والخبراء والمثقفـين والعقول من أرقى طراز . وقد أثبتوا جدارتهم من مواقع شتى مـن العالم . وحافلة فوق ذلك بالشجعان ! وفي أرضها بئر لا قرار لهـا من حب الوطن وتركة الكفاح ورفض الذل والعناد. وضباطنا وجنودنا ليسوا أقل كفاءة ولا بسالة من كفاءات هذا الوطن .

كانت هذه هي الغربة الكبرى .

وما هي الغربة ؟ أليست هي ان لا تتعرف على نفسك ، ولا على من حولك او ما حولك ، ولا على وطنك وأمتك ؟

أن تكون عواطفك في عقلك وقلبك صورة وملامح حفرها التاريخ، وعمقتها العاطفة والمعرفة معا ، ثم تنظر باحثا عن هذه الملامح فـــلا تتعرف عليهـا ؟

٦ اكتوبر ١٩٧٣ : في بيروت ، وبيني وبين بلدي الذي يحارب ـ بارادته هذه المرة ـ بحار وصحراوات .. ولكن الغربة زالت . لقد تم التعرف من جديد على النفس ، فالمسافة الجغرافية لا تهم .

والمعركة ليست بعيدة عن بيروت . ومن النوافذ ترى المعـــارك الجوية والطائرات تسقط في البحر . ولكن الفرد منا يمشي رافعـا رأسه . فأخبار مقاتلينا تطل ـ منتصرة هذه المرة ـ من كل صحيفة واذاعة وشاشة تلفزيون بل ومن فم كل بائع سجائر او سائق تاكسي بيروتي ، وأنفاس القتال البطولي في سوريا الملاصقة تحس بحرارتها وتكاد تلمسها وأنت تسمع اخبارها من شهود العيان .

وتكون الرحلة الى القاهرة تحصيل حاصل . فهي انهاء شكـلي للغربة التي زالت من النفس ومن الضمير . ساعات الطائرة الـــى بنغازي : ثم اربع وعشرون ساعة متواصلة بالسيارة عبر الصحـــراء الى القاهرة ، تدفعها لهفة واحدة : ان ارى وجه قاهرة اكتوبر ١٩٧٣ حتى تزول من خاطري صورتها يوم عدت من باريس في يونيو ١٩٦٧ ذات أمسية حزينة .

لقد أنهى الرئيس السادات غربتنا الكبيرة بقرار اكتوبر ١٩٧٣ ، قرار ربما كان كلمة واحدة ولكنه خلاصة لكل الآلام العظيمة والامـــال الكبار المختزنة منذ سبع سنوات .

وقد انهت قواتنا المسلحة غربتنا بالطريقة الفذة التي نفذت بها القرار . انهم هناك تحت اللهب والنار وكأنهم حملوا الغبار الثقيل الى العدو : السماء تنقشع كلها في لحظة واحدة عن وجه مصر الحقيقي .

الاهرام
١٥ تشرين الاول

مع بداية الاسبوع الثالث للقتال

تدخل حرب اكتوبر ١٩٧٣ اليوم أسبوعها الثالث . وأول ما يخطر على البال قول موشى دايان كما سمعته بأذني يوم ٧ اكتوبر حين قال : « يومان لصد الهجوم المصري السوري ، ثم يومان يكتمل خلالهما استدعاء الاحتياطي الاسرائيلي ، ثم يومان لانهاء القتال ! » .

أي ستة ايام اخرى ، لا اكثر ولا أقل .

وأيضا ، في نفس اليوم ، سمعت غولدا مائير تعزف على وتر آخر ، موجه هذه المرة للعالم الخارجي « نحن ندافع عن أنفسنا . انهم هم المعتدون ، ونحن لا نريد الا السلام » .. فاسرائيل سنة ١٩٦٧ وجدت في اغلاق خليج العقبة بضع ساعات سببا كافيا لشن الحرب ، ولكنها لا تجد في احتلالها لاراضي ثلاث دول عربية ، وتشريد مليون عربي آخرين ، ورفض كل الضغوط الدولية من اجل السلام ، سببا لان يحارب العرب !

أما والحرب تبدأ اسبوعها الثالث ، فلا أظن ان هناك شيئا يستطيع ان يضيفه كاتب الى شعور أي مواطن :

لقد كان لا بد مما ليس منه بد ! كان لا بد مهما كانت النتائج ان تعرف اسرائيل ويعرف العالم ان ارضنا لها ثمن باهظ ، سوف نظل ندفعه حتى نستردها .

والاتفاق شامل بين كل المعلقين والمحللين في مختلف انحاء العالم : ان أي عمل تقوم به اسرائيل لا يمكن ان يلغي اثر التغير الذي حدث : حتمية السيطرة الاسرائيلية على العالم العربي تحطمت. أسطورة عجز العرب ـ الابدي ! ـ عن استخدام أدوات العصر الحديث حتى الحربي منها ، لم تعد واردة .

يبقى ان يعرف هذا العرب جميعا ! بمعنى ان يعرفوا ان مردود هذا التحول ليس مقصورا على دول المواجهة وحدها . وليس مقصورا على استرداد او فقدان قطعة من الارض ، ولكن مردوده يشمل كل حياة العرب وكل مصالح العرب وكل مستقبل العرب في هذا العالم الذي تعاد صياغته لقرون طويلة مقبلة ، بالتطور الاقتصادي والعلمي والاجتماعي تارة ، وبالصراع أو الوفاق السياسي تارة ، وبالدم والحديد والنار تارة أخرى .

ولنحاول استعراض كل قضايا العرب : حدود متنازع عليها .. جزر تائهة .. ثروات طبيعية لا تهدأ حولها حرب الاسعار .. آمال في التنمية والتقدم .. أموال سائلة في بحار من المضاربات الدولية .. ان ما يحدث في الجبهة ينعكس على هذا كله : بالفارق بين أمة يعاملها العالم معاملة المهزوم المذعن ، وأمة يعاملها العالم معاملة الند .

وفي هذا المجال لا بد ان يقال ان أي ثروة او سائل خام ليس أغلى من الدم ! ولا بد ان يقال ان الاسهامات الرمزية لم يعد لها مجال .

ولا بد ان يقال ايضا ان كل شيء في الحياة قد يمكن معالجته او التعامل معه بنصف مجهود ، او نصف قلب ، ما عدا الحرب ! الحرب جوهرها هو كيف يستطيع شعب او تستطيع أمة ان تضع فيها « كل شيء » من طلقة الرصاص الى لقمة الخبز الى دقيقة العمل الى كفاءة العقل ، وبالسرعة اللازمة .

فالشعار الذي يجب ان يرفعه كل قطر محارب ، وتفرضه على نفسها الامة العربية جمعاء هو : الكل ... والآن !

قواتنا المسلحة تعطي « الكل ... والآن ! » .. فهل تعطي أمتنا هذه المعركة البطولية التاريخية : الكل ... وبدون تأجيل ؟

الوقت في الحرب ليس من ذهب .. انه من دم !

●

قال الرئيس أنور السادات في أهم خطاب له ، في أهم يوم في حياتنا : « انني أفضل احترام العالم ولو بغير عطف ، على عطف العالم اذا كان بغير احترام ! » .

وليس هناك أصح من هذا الكلام . ليس في باب الكرامة والكبرياء فحسب ولكن في باب المصلحة ايضا ! ان عطف العالم لا يعطي شيئا ، في حين ان الاحترام هو الذي يعطي الكثير !

وهنا يجب ان يكون هذا الآن واضحا هذه المرة للعالم الخارجي !

هناك « أصدقاء » ليس لديهم مانع أبدا من ان يربتوا على أكتافنا ، ويخففوا من آلامنا ، ويصدروا التصريحات في تأييدنا ، وربما أعطوا ايضا اصواتهم لنا في المحافل الدولية .. ما دمنا الطرف الاضعف ، لكن هذا لن يحل لنا قضية ، في حين انه يضمن لهم مصالحهم الحيوية لدينا .

هؤلاء الاصدقاء ، فيهم الدول ، وفيهم الاحزاب ، وفيهم الكتاب والصحفيون !

ماذا يضيرهم ان يشتروا ما لدينا بالعطف ، في حين ان قلوب بعضهم ليست ـ في أعماقهم ـ مع حقوقنا ، وعقلهم الباطن يخشى انتصارنا ؟

الكثيرون اتقنوا فن معاملتنا على هذا النحو طوال سبع سنوات تقريبا !

ولهؤلاء يجب ان نقول ان هذه هي ساعة الحسم والصدق !

وقد خانت البعض مشاعرهم بالفعل ، فوجدناهم يتوجسون النصر العربي ... لان الامة العربية ـ بموقعها ومساحتها وثروتها وتراثها ـ يمكن ان تكون ماردا يحسب لمستقبله الف حساب . وهو حساب يؤرق بعض هؤلاء من « اصدقاء العطف » ، الذين يرغب « لاشعورهم » في ان تظل علاقتهم بنا علاقة الغني بالفقير لا بأس لديه ان يتصدق عليه بالعطف ، ولكنه لا يقبل بعد فكرة ان يكون شريكا له على نفس القدم من المساواة !

من أخطر آثار الاسبوعين الماضيين والاسابيع المقبلة : ان مزيدا من الناس في العالم بدأوا يشعرون ان المستقبل العربي يمكن ان يكون حقيقة !

●

سياسة الوفاق الدولي دائما عبر التاريخ ، هدف للقوى الكبرى في أي عصر ، اذا اقترنت بعجز كل منها عن تدمير الاخرى ...

وعلى الاقل منذ فشل سياسة فوستر دالاس في احتواء روسيا ثم « ردها الى الوراء » على حد تعبيره ، ثم منذ سحب الصواريخ السوفياتية من كوبا في تلك المواجهة الخطرة سنة ١٩٦٠ ، وروسيا وأميركا تعملان بشدة للوصول الى صيغة وفاق ..

وكان لا بد ان يمر هذا الوفاق عبر قضايا بالغة الخطر ومشحونة بامكانيات الانفجار : الموقف في أوروبا ومشكلة المانيا بالذات ـ تحديد الاسلحة الذرية ـ حرب الهند الصينية ـ مكان العملاق الصيني من خريطة العلاقات الدولية ـ موازنة المصالح الاقتصادية للدولتين العظيمتين في أماكن شتى من العالم ـ والشرق الاوسط بمركزه الحساس .

ووصلت محاولات الوفاق الى قمتها بعد رحلتي نيكسون الى

الصين وروسيا والتوصل الى اتفاق فيتنام . والاعتراف بدولتين المانيتين ودخولهما الامم المتحدة ثم الاتفاقات الاقتصادية الكبرى المباشرة بين الدولتين ، وان كانت ما تزال معلقة بسبب اعتراضات كثيرة داخل اميركا ، بعضها من اليمين الاميركي التقليدي الذي يراها تقوية لروسيا ، وبعضها من الليبراليين بسبب تأييدهم لاسرائيل ورغبتهم في ربطها بالتأثير على موقف روسيا نحو اسرائيل والهجرة اليهودية .

ولكن كل دارس للسياسة يعرف ان الاحداث الدولية لا تعرف « المطلق » ابدا . خصوصا في عالم اليوم المتشابك المعقد ، الذي مهما بلغت فيه قوة الدولتين العظيمتين ، فهما لا تستطيعان السيطرة تماما على كل ما يمكن ان يحدث في العالم . لم يعد العالم مهملا كما كان في العصور القديمة : يكفي ان تتهادن الامبراطوريتان الرومانيتان لكي يسود السكون في العالم .

وحتى قبل بدء حرب اكتوبر في الشرق الاوسط بدأ من يقولون بأن سياسة الوفاق وهم قصير العمر . وانها خلقت لكل دولة من الدولتين العظميين من المشاكل مع حلفائها وخصومها اكثر مما حلت من مشاكل . ألا نرى أوروبا تتململ وتعيد بحث موقفها ؟.. ألا نرى اليابان تغير من كثير من اتجاهات عملها ؟ ألا تستمر الحرب في كمبوديا ؟.. أليست الصين تعود الى تذمرها وتحفظاتها ونقدها للدولتين معا ؟.. أليس ما حدث في شيلي بكل عنفه ساحة اخرى للصراع ؟ ثم أخيرا تنفجر حرب خطيرة في الشرق الاوسط ؟..

ان الخلاصة من هذا كله واضحة :

١ ـ القوتان العظميان لهما تأثيرهما الاكيد على ما يجري في العالم ، تأثير يقوى أحيانا حين يتفقان ويضعف حين يختلفان ، لان اتفاقهما ليس كاملا ، ولا يمكن ان يكون كاملا ذات يوم أبدا .

٢ ـ ان الارادات المحلية لها دور كبير تلعبه وتؤثر به على اقدار نفسها .. أي ان امامها ساحة كافية للحركة ، وان الكثير يتوقف على تصميمها وعلى خلق واقع يؤثر على مواقف وسياسات القوى الكبرى ذاتها ...

فلا مجال للاستسلام امام بديهية غير حقيقية وهي ان الوفاق قاطع ، والرضوخ لمتطلباته حتمية ...

أليس قرار العبور التاريخي في ٦ اكتوبر ٧٣ ، وما خلقه فعلا من واقع جديد في الشرق الاوسط ، أسطع الادلة على ذلك ؟

الاهرام
٢٠ تشرين الاول

●

قبل وبعد ٦ اكتوبر

لست أقصد ان أحدد « أين كانوا وأين كنا قبل ٦ اكتوبر » بمعنى المواقع التي تقف عندها جيوشهم وجيوشنا . فهي على وجه التأكيد مواقع للانطلاق نحو نضال سياسي عنيف او نحو قتال عسكري جديد أشد عنفا وضراوة .

لست أقصد اذن المعنى الجغرافي في عبارة أين كانوا وأين كنا .. فالحرب لم تنته بوقف اطلاق النار .. وانما أقصد المعنى السياسي والمعنوي والنفسي ، وهو ايضا تعبير بالغ الاهمية او نتيجة بالغة الاهمية من نتائج القتال ..

اذا كانت ثقتنا بانفسنا وبقواتنا المسلحة قد صعدت ، وثقتهم في أنفسهم وفي قواتهم المسلحة قد هبطت ، فهذه نتيجة هامة ..

اذا كانت صورتنا في العالم قد تغيرت الى الاحسن ، والهالة التي كانوا يحيطون بها أنفسهم قد تبددت ، فهذه نتيجة اخرى .

اذا كان نهوضنا لاستئناف القتال غدا أسهل علينا نفسيا وعسكريا بكثير من نهوضنا به بعد ركود ست سنوات ، فهذه نتيجة هامة ايضا ، اذ سوف يحسب كل طرف في الدنيا حساباته على ان المصريين قد قاتلوا ، وأبلوا بلاء حسنا وسوف يقاتلون .

واذا كانت ارادة القتال حلقات تتصاعد بينما القعود والركون له أيضا منطقه الذي يجذب المجتمع الى القاع ، فقد عادت عزيمتنا تطفو على السطح وتتنفس الحياة ، باستعداد اكبر لمواجهة مخاطر المستقبل دون وجل .

ولعل المرء لا يدرك الفارق الهائل الذي طرأ باندفاع قواتنا نحو القتال يوم ٦ اكتوبر ، الا اذا ألقى نظرة قارن فيها بين ما يشغل الاسرائيليين الآن (محاولة انقاذ سمعة اسرائيل القديمة ـ تقييم الخسائر الفادحة ـ الصراع حول من المخطىء ـ الشك في الطريق العسكري كطريق وحيد وأكيد لمعاملة العرب) وبين ما كان يشغلهم حتى صباح ٦ اكتوبر ١٩٧٣ .

كانوا قبل ٦ اكتوبر يستعدون لانتخابات جديدة ، ولا مجال هنا لاستعراض ماذا كان يطالب به كل حزب . يكفي ان نقف عند نصوص البرنامج الذي وضعه الحزب الحاكم واتفق عليه بعد خلاف .

البرنامج ـ أولا ـ كان لمدة اربع سنوات مقبلة ، بما يشمله من اجراءات وميزانيات واعتمادات ومواعيد . كانوا يخططون في راحة بال تامة الى نهاية سنة ١٩٧٧ . أي انه كان في حسابهم ان لا شيء جديد حتى ١٩٧٨ على الاقل .

والبرنامج ـ ثانيا ـ يقوم ، على اساس استيعاب كامل للاراضي المحتلة بعد صراع حاد حول هذا الموضوع انتصر فيه من يسمونهم بانصار « الكل » أي ضم كل ما استولى عليه الجيش الاسرائيلي في حرب يونيو ٦٧ .

فقد اقامت اسرائيل في الارض المحتلة حتى الآن ـ خلال ٧ سنوات ـ ٤٦ مستوطنة يهودية ، تنفيذا لخطة الاستيلاء على الاراضي وتوطين الاسرائيليين فيها ، التي هي العمود الفقري لسياسة الضم النهائي . اما خطة السنوات الاربع المقبلة فهي اقامة ٢٦ مستوطنة (قرية زراعية او صناعية او سياحية) كالتالي : ٦ مستوطنات في هضبة الجولان ـ ٦ في غور الاردن ـ ٧ في مشارف رفح ـ ٦ في قطاع غزة ـ ٣ في خليج العقبة !

وفوق ذلك المضي في ثلاثة مشروعات خطيرة : أولها توسيع « القدس » التي أعلنوا ضمها رسميا منذ ١٩٦٧ بحيث يضم الى المدينة عشرات القرى العربية وآلاف الافدنة الجديدة حتى تصل الى مدينة بيت لحم وتجعلها ضاحية من ضواحيها ـ وثانيها اقامة ميناء عميق ومدينة عند رفح ـ وثالثها اقامة مركز صناعي كبير في كفر سابا لتحويل منطقة طولكرم وقلقيلية المحتلة الى منطقة صناعية كبرى .

وكل التفاصيل حول اسلوب « شراء » الاراضي او الاستيلاء عليها وتطبيق القوانين الاسرائيلية على المستوطنات (تمهيدا لتطبيقها على كل الاراضي المحتلة) .. واردة في البرنامج الانتخابي الذي كان مقررا له ان يبدأ تنفيذه في نوفمبر المقبل .

ولم تغب أهمية هذه الوثيقة عن بال المعلقين الاسرائيليين يوم صدورها ، وكان ذلك قبل حرب اكتوبر بأسابيع قليلة ...

فطوال السنوات السبع منذ هزيمة ١٩٦٧ ، كان ما يسمونه « بمستقبل الاراضي المحتلة » محل نقاش حاد وطويل في اسرائيل . وطبعا لم يكن النقاش بين من « يريدون » ومن « لا يريدون » ، لان الكل بالطبع يتمنى ويريد ، ولكنه كان بين من « يرون ان هذا ممكن » ومن يرون « انه غير ممكن » . وفي البداية ، كان الذين يرون ان هذا صعب ، هم الاكثرية .. ولكن مع مرور الوقت ،

واستمرار الركود ، وما بدا من انشغال العرب باي شيء سوى تحرير أرضهم ، الا على صفحات الصحف وفي التصريحات ! اخذ عدد الذين يرون « ان هذا ممكن » يزداد بسرعة ، ومع ذلك فقد ظل حزب العمل الحاكم ممتنعا زمنا طويلا عن جعل خطة الاستيعاب الكامل برنامجا رسميا له ، حتى اقترب موعد الانتخابات التي كان مقررا لها نوفمبر المقبل . واخذت استفتاءات الرأي العام توضح انه مع غياب عنصر القتال ، اي غياب عنصر « الثمن » الذي يمكن ان تدفعه اسرائيل ، أخذت أغلبية الرأي العام تتجه بسرعة الى قبول فكرة الضم الكامل ، وان الزمن لصلحتهم . وهكذا وجد حزب العمل الحاكم انه من الممكن ان يلتزم رسميا وتنفيذيا ببرنامج للضم الكامل .

قالت صحيفة « دافار » الاسرائيلية يومها : « هكذا اصبحت هذه السياسة قرارا ملزما لمؤسسات الحزب وممثليه ، وستكون هذه الوثيقة هي دليل العمل الموجه لنشاطات الحكومة كلها خلال السنوات الاربع المقبلة » .

وقالت « هآرتس » أيضا : « كان الحديث عن هذه الاشياء قبل ذلك شفهيا وضمنيا ، اما الآن فقد أصبح هذا التزاما ببرنامج عمل لاشياء محددة كالميناء والمدينة اليهودية عند مشارف رفح كمنطقة عازلة بين قطاع غزة « وذلك الجزء من سيناء الذي قد ترده اسرائيل الى مصر » ، وتوسيع الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية كلها ، وتخصيص مليار وربع مليار ليرة لهذه المشروعات .. وهذا كله يمثل اندفاعا في الضم لم يسبق له مثيل في تاريخ اسرائيل » .

وقالت « هآرتس » ايضا : « ان التردد في هذا الاندفاع كان مبعثه في السابق خوف حكومة اسرائيل من خلق واقع يصعب الدفاع عنه بعد ذلك ازاء الضغوط الخارجية ، ولكن هذا الخوف قد زال الآن (كان هذا الكلام في أواخر سبتمبر) وأعلنت ان الحكومة قد بدأت فعلا في تنفيذ هذا البرنامج بضم ٤٠٠٠ فدان الى القدس ، وقديما كانت تبرر الضم رسميا « باعتبارات الامن » من باب المناورة ، والايحاء بان الضم مؤقت (حتى يستقر طبعا) ولكنها في هذه الحالة برته صراحة « بضمان العمل اليهودي وتوسيع المراكز الصناعية في القدس » أي بالضم القانوني الرسمي الصريح » .

وبدأ التنفيذ فعلا (قبل الحرب بشهر واحد ايضا) في ضم بيت لحم الى القدس . اذ استولت حكومة اسرائيل على الاراضي الزراعية العربية الفاصلة بين المدينتين ، وعندما احتج اصحاب الارض من العرب قال لهم الحاكم العسكري في بيت لحم : « ان الاستيلاء هو حقيقة منتهية » . وقالت احدى الصحف الاسرائيلية : « بهذه الخطوة ، سيتم بصورة عملية اقامة اتصال مباشر بين بيت لحم والقدس » . وعلقت جريدة « الاتحاد » هناك : « ان هذا يعني دمج بيت لحم ، ثاني أكبر مدن الضفة الغربية ، ومهد المسيح ، الى القدس واعتبارها جزءا قانونيا من اسرائيل » .

وفي اتجاه آخر عميق الدلالة ، بدأ الاسرائيليون قبل حرب اكتوبر بشهرين فقط يعودون الى التنقيب عن البترول في سيناء ، بعد ان كانوا قد توقفوا عن ذلك خلال حرب الاستنزاف ـ كما تقول جريدة الجيروزاليم بوست ـ وان شركة « لاميدبار » (ملكيتها اسرائيلية ـ كندية) اخذت تستعد لذلك ... وخصصت ١٥ مليون دولار مبدئيا واختارت ثلاثة مواقع للبدء بالتنقيب فيها : الطور ، رمانة ، العريش .. أي في ثلاثة اطراف سيناء .

واقترن هذا ، في نفس الشهر الذي نشر فيه هذا الخبر ، بافتتاح بنحاس سابير وزير المال لاول كلية اسرائيلية للعلوم البترولية في « رامات ابيب » .

وقبل ذلك بشهر ، افتتحت مصفاة جديدة لتكرير البترول في ميناء اشدود ـ اقرب الموانىء الاسرائيلية الى سيناء .

وبدأت حملات واسعة في اميركا لجمع المال والمساعدات والخبرات لهذا الاستثمار الواسع لسيناء ...

وقد كان التخوف السابق لدى بعض الاسرائيليين هو ان ضم الاراضي المحتلة معناه ضم مليون عربي لدولة اسرائيل الامر الذي يهدد بتغيير هوية الدولة اليهودية مع الزمن . واستنام من بيننا عرب كثيرون الى هذا الرادع لدى اسرائيل . ولكن الرد كان موجودا ولكنه غير معلن : تهجير العرب تدريجيا من الاراضي المحتلة !

(ملاحظة اعتراضية : تقيم اسرائيل والصهيونية العالمية الدنيا ضد روسيا دفاعا عن « حق الفرد في الهجرة من بلده » ولا أحد يتحدث هناك عن حق أسبق وهو : حق الفرد في عدم الهجرة من بلده) .

فالى جانب القوانين التي تمنع العرب من اقامة مبان لهم ولسكناهم ، والسماح بشراء أراضي العرب بواسطة اليهود ـ حكومة ومؤسسات وأفرادا ـ والجمعيات الكثيرة المشكلة لتشجيع العرب ـ خصوصا المتعلمين ـ على الهجرة الى اميركا وكندا واستراليا وغيرها مع اعانات مالية ، وفرص عمل ، وكل هذه الخطوات كانت سائرة في طريقها في ايقاع متصاعد باستمرار .

ان كل ما ذكرته ماخوذ من قرارات اسرائيل وتصرفاتها فقط في الشهرين السابقين على حرب اكتوبر ... عندما كانوا في قمة تحويل ترف احلام اليقظة لدى اكثرهم طموحا الى حقائق صلبة .

والواقع انها لم تكن بالنسبة لهم أحلام يقظة . كان الواقع في أيديهم ، وكانت أيديهم مطلقة الحرية في تشكيل هذا الواقع . بينما كان كل ما لدى العرب ـ دم ، سلاح ، بترول ، كل شيء ـ واقفا راكدا حسبه البعض نائما وحسبه آخرون ميتا لا حراك له .

كانوا يشعرون حقا انهم يبيعون جلد العرب و « بعد » اصطياده !

ولكن ما بذلته قواتنا المسلحة من دمها وشجاعتها في اقتحام ساحة القتال هو الذي قطع عليهم أحلام يقظتهم التي كادت تتحول الى واقع ، وهو الذي بعث الحياة في الكثير مما لدى العرب من أسلحة رجال او مال او عتاد .. لانه أثبت ان الانتصار ممكن ..

لقد كان اتخاذ قرار القتال صعبا .

وكان القتال أشد صعوبة وضراوة ومرارة .

وهذا يوضح لنا ان المستقبل لن يكون بدوره سهلا .

وان التحديات الكامنة على الطريق الخطر الطويل كثيرة : عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية ...

فمثل هذا الصميم الاسرائيلي لن يزول من افئدتهم في غمضة عين . وتاريخهم القائم على الخديعة ، وانتظار الفرص ، والتآمر الدولي والانقضاض العسكري ، والنفاذ من خلال المتناقضات العربية ، يوضح انه حتى تراجعهم عن خطوط وصلوا اليها على الخريطة لا يعكس على الفور تراجعا بنفس النسبة فأطماعهم ، وعقيدتهم السياسية ، ومخططاتهم التي يحسبون لها بالاجيال وليس بالايام والشهور ...

كان جيشنا رأس الحربة في التصدي لعدوانهم على الخريطة .

بقي ان تكون كل طاقاتنا الفكرية والنضالية والتنظيمية والانتاجية زاحفة وراء رأس حربتنا : لتصد عدوانهم الكامن في نفوسهم ، ولتكون كلها سندا لقواتنا المسلحة .

الاهرام
٣٠ تشرين الاول